السياق القرآني ودلالتة في توجيه معنى تربية الأسرة
يَآيُّهَاالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْٓا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا

د- سجاد أبوبكر*

ملخص:

إن القرآن الكريم ليس فصولاً دارسية مستقلة، كما أنه ليس فصولاً إرتقائية تبدأ في مراحل تمهيدية ثم تبتني المواد الأساسية عليها، لينتهي البحث إلى النتائج المتوخاة من التمهيد والمواد، وإنما القرآن الكريم عبارة عن مطالب مزجية تراكبية. بمعنى أن آياته الكريمة تنهض بوظائف مختلفة؛ فالآية الواحدة فيها قابلية التمهيد وقابلية الكون في البنى التحتية لمطالب مختلفة وقابلية رسم الموقف الأوّلي والمتوسط والنهائي للقرآن الكريم.

فقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا يتفق السياق والدلالة، كالنداء والتحصيص والأمر والعطف والحذف والتكرار بالإضافة إلى سياق بنية الصوت، على أهمية الأسرة في تربية أبنائها وأفرادها، وعلى دورها الكبير في تحقيق ذلك. وهى المؤسسة الأولى المؤثرة في تربية أفراد الأسرة وتكوين الشخصية المستقبلية.

ومن الجدير بمقام أن ينظر إلى دلالة الآية من زوايا مختلفة وبمنظارات متباينة. بناء على ذلك يسعى هذا البحث إلى مناقشة بعض النقاط المتمثلة في الأسئلة التالية:

١/ ما دور المفسرين في بيان محتويات الآية الكريمة؟

٢/ ما دور السياق في تحديد معنى الأهل؟

٣/ ما هى الأهداف المنشودة في تكوين الأسرة في الإسلام؟

٤/ ما وظيفة الأسرة وواجباتها نحو الحياة الأفضل؟

ثم يختتم البحث، إن شاء الله تعالى، ببعض المقترحات والتوصيات.

مفاتيح الكلمات: القرآن،التربية الأسرة، الحياة

* استاد المساعد كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة أحمدو بيللو ، زاريا ، نيجيريا

تمهيد

جاء الإسلام كدين سماوي يهدى البشرية إلى الصراط المستقيم جاء شاملا لكل أمور الدنيا والأخرة واتسم هذا الدين بالشمول في كل جوانبه وأبعاده، فشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع والعبادة والتربية.

واستوعبه المسلمون الأوائل بالفطرة التى فطر الله الناس عليها "فِطْرَتَ اللهِ الَّتِيْ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ"[1]

وانطلقوا في الدنيا يطبقون مفاهيمه ويؤدون تعاليمه وفرائضه وكل مافيهم من امكانية بشرية قد تشربت بروحه العالية فتصرفت في كل أمور الدنيا بهذه الروح فجاءت تصرفاتهم أمثلة نادرة على استخدام كل ما وهبنا الله إياه من عقل ونفس وروح وجسم .

وعاش الإسلام متجددًا مع تجدد الحياة ونحوها متجاوبًا مع مطالب التجدد والتغير والإستمرار، التربية الإسلامية ثروة تربوية العظمى فى الأهداف والمناهج والأساليب ومن أهم صفات هذه التروة أنها واقعية أنها متسامية وأنها شاملة ودقيقة غاية الدقة فقوله تعالى "يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْٓا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا" نؤكد دلالة واقعية التربية الإسلامية وأنها سامية وشاملة.

المحور الأول

مفهوم الأسرة

تتكون الأسرة من الأبوين، فهى اللبنة الأولى والدعامة الأساسية في بناء المجتمع، فهذه اللبنة إذا كانت قوية تشير إلى قوة وبقاء من يقوم عليها، وإذا كانت ضعيفة فإنها تشير إلى ضعف وذوبان من يعتمد عليها، فهي إذا أقدم مؤسسة اجتماعية على مر التاريخ.[2]

يمكن استعراض مجموعة من التعريفات للأسرة منها:

[1]: روم، ۳۰

[2] :محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، ص:۱۵

١- رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزجة، وأطفال، أو قد يكون دون أطفال. وقد تتوسع الأسرة لتصبح أكبر من ذلك فتشمل أفرادًا آخرين كالأجداد والأحفاد، يشتركون فى معيشة واحدة.[١]

٢- جماعة من الأفراد تربطهم روابط معينة كالزواج، أو الدم ويتفقون على تكوين مستقل يوزعون فيه الأدوار والمهام ويخلقون لأنفسهم ثقافة تميزهم عن غيرهم.[٢]

٣- هي المجموعة التى ترتبط أركانها بالزواج الشرعي الذى أقره الدين الإسلامي، ويلتزم بجميع الحقوق والواجبات التى تم تحديدها.[٣]

أما التربية الإسلامية لا تعد الأسرة مؤسسة تربوية إسلامية إلا إذا روعى فى بنائها التوجيهات والمبادئ والأحكام التى حددها الإسلام لذلك، والتى منها أولاً، أن يكون الزوجان صاحبى دين وخلق بمعنى أن يكون الزوجان صاحبى فهم حقيقي للإسلام، وتطبيق سلوكى لكل فضائله الساميّة وآدابه الرفيعة والتزام كامل بمناهج الشريعة ومبادئها.[٤]

مفهوم "الأهل"

يقول الرّاغب الإصفهاني في مفرداته (أهل)

* أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد. فأهل الرجل: فى الأصل من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإياهم.

وتُعُورف فى أسرة النّبي عليه الصلاة والسلام مطلقًا إذا قيل "اَهْلَ الْبَيْتِ" لقوله تعالى:

"اِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَيْتِ" [٥]

---

[١] : المرجع نفسه، ص:١٧

[٢] : المرجع نفسه، ص:١٧

[٣] : المرجع نفسه، ص:١٧

[٤] : الرّاغب الإصفهاني، مفرادات الرّاغب الإصفهاني، دار المعروف للطباعة والنشر، دت ص:٨٣

[٥]: الاحزاب: ٣٣

وعبرّ بأهل الرجل عن امرأته وأهل الإسلام من يجمعهم، ولما كانت الشريعة حكمت يرفع حكم النسب فى كثير من الأحكام بين المسلم والكافر قال: تعالى: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ"[1] وقال تعالى: "وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ"[2].

* وقيل أَهَلَ الرجل، يأهَلُ أَهُولاً، وقيل مكان مأهول: فيه أهله. وأُهِلَ به: إذا صار ذا ناس وأهل، وكل دابه ألف مكانًا يقال أَهِلٌ وأَهْلِي.

* وتَأَهَّل: إذا تزوج، ومنه قيل أهّلك الله في الجنّة أي زوجك فيها، وجعل لله فيها أهلاً يجمعك وإياهم. ويقال فلان أهل لكذا، أي خليق به.

* ومرحبا وأهلاً: فى التحية للناول بالإنسان أي وجدت سعة مكان عندنا ومن هو أهل بيت لك في الشفقة وجمع الأهل أهلون، وأهال وأهلات.

مفهوم التربية

– التربية الإسلامية لا تتفق فى مفهومها وموضوعها مع مصطلح التربية الحديثة بأنها " إحداث تغير فى سلوك الفرد" وإنما هي حفاظ وصيان لفطرة الطفل والصبي والشباب، وإكسابها ما يتفق معها من إيمان وإحسان وإبعاد الحواجز عنها وتقريب الحواجز إليها، وإذا حدث فى سلوك الطفل أو الصبي أو الشباب –أو حتى الرجل– انحراف أو اعوجاج، فإصلاحه أو تقويمه ليس تغيرًا لسلوكه، وإنما هو إعادة له إلى الفطرية النقية الصافية.[3]

وهذه التربية تبدأ من البيت وقد جاء القرآن الكريم والحديث النبوي بمنهج واضح، ونصوص صريحة فى هذا الموضوع، من ذلك قوله تعالى "يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا"[4]

وقوله تعالى: "وَأْمُرْ اَهْلَكَ بِالصَّلٰوةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوٰىَّ [5]

---

[1] : هود: ٤٦

[2] : هود: ٤٠

[3] : نبل خللو 2013م الأسرة وعوامل نجاحها، (طدا) الجزائر جامعة قاصدى مرباح ورقلة، ص:٢١

[4]: التحريم: ٦

[5]: طه: ١٣٢

وقوله تعالى: "وَالَّذِيْنَ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ اَزْوَاجِنَا وَذُرِّيّٰتِنَا قُرَّةَ اَعْيُنٍ وَّاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِيْنَ اِمَامًا [1]

وقوله تعالى "وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِاِيْمَانٍ اَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا اَلَتْنٰهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ [2]

وهنالك قصة نوح مع ابنه، ووصايا لقمان لولده فهذه الآيات والقصص القرآنية وأمثالها ترسم لمنهج القرآن لتربية الجيل الجديد من أجل أن يكونوا صالحين أي قرة أعين، لأبائهم وأمهاتهم.

فالإسلام نظام أسرة، البيت فى اعتباره مثابة وسكن، فى ظله تلتقى النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر، وفى كتفه تنبت الطفولة وتدرج الحداثة، ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل.[3]

يصور العلاقة المبتبة تصويرًا رفاقا شفيعًا، يشع منه التعاطف وترف فيه الظلال، ويشيع فيه الندى، ويفوح منه العير "هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَاَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ"[4]

"وَمِنْ اٰيٰتِه اَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ اَنْفُسِكُمْ اَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوْا اِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَّرَحْمَةً[5]

فهي صله النفس بالنفس، وهي صلة السكن والقرار، وهي صلة المودة والرحمة وهي صلة الستر والتجمل، وإن الإنسان ليحسن فى الألفاظ ذاتها حنوا ورفقًا ويستروح من خلالها نداوة وظلاً، وإنها لتعبير كامل عن حقيقة الصلة التى يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنسانى الرقيق الوثيق، ذلك فى الوقت الذى يلحظ فيه أعراض ذلك الرباط كلها، بما فيها امتداد الحياة بالنسل، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع ومقتضياتها، ذلك حين يقول:"نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ" [6]

---

[1]: الفرقان: ٧٤

[2]: الطور: ٢١

[3] : نبل خللو؛ الأسرة وعوامل نجاحها ، المرجع نفسه، ص:٦٥

[4]: البقرة: ١٨٧

[5]: الروم: ٢١

[6]: البقرة: ٢٢٣

نساؤكم حرث لكم" فيلحظ كذلك معنى الاخصاب والاكثار.

والذى ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة فى كل وضع أوضاعها ولكل حالة من حالاتها، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات وفى الاحتشاد الظاهر مولها بالمذثرات والمعقبات وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع، كما هو الحال فى قوله تعالى يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا [1]

يدرك إدراكًا كاملاً ضخامة شأن الأسرة فى النظام الإسلامى.[2]

المحور الثاني

دلالة السياق للأية (يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْا[3]) عند اللغويين والمفسرين

التمهيد:

وقد تلت هذه الأية الأيات التى جاءت في بداية سورة التحريم والتى حذرت فيها نساء النّبي صلى الله عليه وآله من أعمالهن، وبعدها ذكر المطلب بصورة حكمٍ عامٍ شمل كل المؤمنيين.

ومن المعلوم أن المقصود من هذه النار هي نار الآخرة، ولا يمكن الاتفاء من تلك النار، إلا الاهتمام بعملبة التعليم والتربية السليمة فى واقع الأسرة والتى بدورها توجب ترك المعاصي، والإقبال على الطاعة وتقوى الله تعالى وبناء على ذلك فإن هذه الأية تعين وتبين وظيفة رب الأسرة، ودوره فى التربية والتعليم وكذلك تبين أهمية وتأثير عنصر التربية والتعليم فى ترشيد الفضائل والأخلاق الحميدة والسيرة الحسنة.

ويجب الإهتمام في ترجمة هذا البرنامج إلى عالم الممارسة والتطبيق من أول لبنة توضع في بناء الأسرة أي إجراء عقد الزواج والرباط المقدس، ويجب الإهتمام بأسلوب التربية من أول لحظة يولد فيها الطفل، ويستمر البرنامج التربوى فى كل مراحل التى تعقبها.

---

[1]: التحريم: ٦

[2]: أحمد محمّد جمال، نحو تربية إسلامية، منسورات تهامة ط:١، سنة ١٩٨٠، ص:٦٠

[3]: التحريم: ٦

فنقرأ في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وءاله أنه عندما نزلت هذه الأية الشريفة سأله أحد أصحابه عن كيفية الوقابة من النار، له ولعياله فقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وءاله.

"تأمرهم بما أمر الله وتنهاهم عما نهاهم الله إن أطاعوك كنت قد وقيتهم وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك"

ويجب أن يكون معلومًا، أم الأمر بالمعروف يعد من الوسائل الناجعة لوقاية الأسرة من الانحراف والسقوط في هاوية الجحيم ولأجل الوصول إلى هذا الهدف، علينا الاستعانة بكل الوسائل المتاحة لدينا وكذلك الاستعانة بالجوانب العملية والنفسية والكلامية، ولا يستبعد شمول الأية لمسألة الوراثة فمثلا أكل لعمة الحلال عند إنعقاد النطفة وذكر الله يوثر إيجابيًا فى تكوين النطفة وتنشئة الطفل وحركته في المستقبل فى خط الإيمان.

أولاً: الدلالة النحوية

نسق النداء:

النداء ينكون هذا النسق من وحدة لغوية تنوب مناب أخرى محذوفة تقديرًا متبوعة بمنادى، وهذه الوحدة هي أداة النداء والأخرى هي فعل مقدر والتقدير صنعة نحوية لتحقق ثنائة العامل والمعمول، فقولنا: يا أحمد تقديره (أدعو) أو (أنادى أحمدَ) يقول (سيبويه): اعلم أن النداء: كل اسم مضاف فيه فهو نصب على اضمار الفعل المتروك اظهاره والمفرد رفع وهو فى موضع اسم منصوب[1] أو هو طلب إقبال المدعو بواحدٍ حروف النداء المعروفة[2]

والنداء من أقسام الطلب الدال على الاستحضار وقد أضمر فعله لأسباب، منها: فههم معناه من السياق، وكثرة الاستعمال ولأن اظهاره ينقله إلى الإخبار وهو طلب، لذا عوض عنه بحرف النداء[3]

[1] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، أطروحة تقدم بها إلى مجلس كلية التربية جامعة بابل لنيل شهادة دكتورة في اللغة العربية ٢٠١١م، ص:١٢٩

[2] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[3] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، المرجع نفسه، ص:١٣٠

أما أدواته –لأن تسمية الحروف غير دقيقة– فخمسة يقول سيبويه: فأما الإسم غير المندوب فينبهه بخمسة أشياء بيا، وأيا، وهيا، وأي، وبالألف. نحو قولك: أحار بي عمرو، إلا أن الأربعة غير الف قد يستعملونها إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشئ المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم الذي يرون أنه لا يقبل عليهم إلا بالاجتهاد، أو النائم المستثقل وقد يستعملون هذه التى للمد فى موضع الألف، ولا يستعملون الألف فى هذه المواضع التى يمدون فيها.... وإن شئت حدفتهن كلهنّ استفناء كقولك: حار بن كعب، وذلك إنه جعلهم بمنزلة من هو مقبل عليه بحضرته يخاطبه[1]

من نـص (سيبويه) نفهم الأتى

أ– أن الغرض من النداء هو التنبيه فى الأصل

ب– أن أدوات النداء خلا (الهمزة) –وهو يسميها الألف– تستعمل لنداء البعيد أو المعرض، وصوت المد فى هذه الأدوات كأنه توكيد على التنبيه

ت– أن الأدوات الأربعة قد تستعمل لتنبيه القريب بدل الهمزة ولا عكس.

ث– جواز حذف أداة النداء إلا مع المستغاث به، لنكتة بلاغية هى القرب ماديا كان أم نفسيًا.

والأدواة (يا) أكثر أودات النداء دورانا فى الكلام أو عمها، الإستغاثة والتعجب وقد تدخل فى الندبة عوضًا عن (وا) يؤيد هذا إن النداء فى القرآن الكريم لم يقع (يا) وإذا حذفت فلا تقدير لغيرها

والمنادى على الأغلب: اسم، ولا يصح نداء غيره إلا لضرورة، فلايصح نداء الضمير، والمضاف لكاف ولا المعرف بـ (أل) إلا لفظ الجلالة والمكى من الجمل ، أو أمر، أو تعليل، ومثال هذا قوله تعالى: "*يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا*".

وأضاف لها (المبرد) الموصول على أن ما ذهب إليه المبرد فيه نظر، ولعله يقصد: (الذي) وأخواته، فقد ينادى (منى) كما فى الدعاء المآثور.

وتسمية سيبويه أدوات النداء بـ (التنبيه) دقيقة لأنه الغرض الأساسى من النداء كما سلف.

[1] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، المرجع نفسه، ص:۱۳۰

ولأن النداء طلب فلا بدّ أن يحتاج إلى بيان المطلوب لذا يصبحه فى الأثر: الأمر أو النهى مقدمًا عليه كقوبه تعالى:"وَتُوْبُوْا اِلَى اللهِ جَمِيْعًا اَيُّهَ الْمُؤْمِنُوْنَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ"[1]

أم متأخرًا عنه كقوله تعالى: "يٰاَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوْا رَبَّكُمُ الَّذِىْ خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ" [2]

وقد يليه خبر أجملة استفهام، والنداء نسق ثري بتصرف فى كثير المعانى، ولا سيما فى اللغة الفنية

نسق الأمر:

الأمر نسق لغوى نقيض النهى، والغرض منه طلب ابقاع الفعل على جهة الإستعلاء[3] أو طلب به الفعل على وجه الخضوع من الله تعالى وهو الدعاء، نحو اللهم ارحم أو من غيره والشفاعة أو لم يطلب به الفعل، بل كان على وجه الإباحة نحو: "يٰاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا قُوْا اَنْفُسَكُمْ" [4]

أو غير ذلك من محامل هذه الصيفة.[5]

وهو ذو سياق فعل، أي أن أداته الفعل أو ما ينوب عنه بيَّن هذا (سيبويه) بقوله فى باب الأمر والنّهى "لأنهما لا يقعان إلا بالفعل، مظهرًا أو مضمرًا، وهما فى هذا أقوى من الإستفهام، لأن حروف الاستفهام قد يستفهم بها فليس بعدها إلا الأسماء نحو قولك: أريد أخوك؟ والأمر والنّهى لا يكونان إلا بفعل، وذلك قولك: زيدًا اضربه – ومنه زيدًا ليضربه عمر لأنه للغائب بمنزلة "افعل" للمخاطب.

قرن سيبويه فى هذا النص– الأمر بالنهى ووازنهما بالاستفهام لاشتراكهم بصفة الطلب.

وموارد الطلب فى أربع صيغ، فضلا عن الإخبار الذي يفهم منه الأمر، وهذه الصيغ هي:

---

[1]: النور: ٣١

[2]: البقرة: ٢١

[3] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، المرجع نفسه، ص:١٣٠

[4]: التحريم: ٦

[5] : جبار أهليل زغير محمد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، المرجع نفسه، ص:١٣٠

أ- الأمـــــر بصيغة (افـعل)

ب- الأمر بصيغة (ليـفعل)

ت- الأمر بصيغة (المصدر)

ث- الأمر بأسـماء الأفعـال

والأمر طلب باستعلاء ولـزوم فى الخـــــطاب العام.

ثانيًا: دور المفسرين في تفسـير الأية

١- **الطبري؛**

يقول تعالى (قُوْا اَنْفُسَكُمْ) [١]

يقول: علموا بعضكم بعضًا ما تقون به تعلمونه النار، وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله، اعملوا بطاعة الله. وقوله (وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا) يقول: وعلموا أهليكم من العمل بطاعة الله ما يقون به أنفسهم من النار.[٢]

٢- ابن كثير، يقول في تـفسير الأية، قال: سفيان الثوري عن منصور عن رجل عن عليّ عليه السلام، في قوله تعالى "قُوْا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا" يقول: أدبوهم وعلموهم. وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس "قُوْا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا" يقول اعملوا بطاعة الله واتّقوا معاصى الله، وأمروا أهليكم بالذكر ينجكم الله من النار. وقال مجاهد: "قُوْا اَنْفُسَكُمْ وَاَهْلِيْكُمْ نَارًا" قال اتّقوا الله وأوصوا أهليكم بتقوى الله. وقال قتادة تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به وتساعدهم عليه فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها وزجرتهم عنها، وهـكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هـذه الأية، الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذيّ: من حديث عبدالملك بن الربيع بن سيرة عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وءاله "مروا الصبيّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها....."[٣]

---

[١]: التحريم: ٦

[٢]: ابن مُحَّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن (الطبري)، الملسية التوفقية ،المجلد ١٥، ص: ١٧٦

[٣]: الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير المتقى، تفسير القرآن العظيم، المكتبة التوقيقة د.ت الجزء: الثامن، ص:١٣٣

٣- الطباطبائي، قال في تفسير الأية، "قو" أمر من الوقابة بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه وبصره، والوقود بفتح الواو اسم لما توقد به النار من حطب ونحوه، والمراد بالنار نار جهنم وكون الناس المعذبين فيها وقودًا لها معناه اشتعال الناس فيها أنفسهم..[١]

٤- مُحَمَّد جواد مغنية، يقول؛ والمعنى، إذا كان المؤمن يشعر بالمسؤولية أمام الله كما يقول ويفعل، ويخاف من غضبه وعذابه فإن عليه أن يعلم أنه مسؤول أيضًا أمام الله عن أهله وأولاده، وإن هي من واجبة أن يمد يده إلى العمل على صلاحهم وتقويمهم، وإن كان الأب يفعل الكثير من أجل ولده حرصًا عليه وعلى مستقبله فى هذه الحياة الفانية فأولى له أن يعمل لسعادته في الحياة الباقية، وأن يقيه ما هو أشد وأعظم من غدرات الزمان وضرباته.... ولكن..... ما يصنع الأدب المؤمن مع هذا الجيل الحديد الذى يريد من الآباء أن يخضعوا لأمره، وينزلوا على رأيه.[٢]

٥- ا الشيخ مُحَمَّد طاهر ابن عاشور، يقول؛ كانت موعظة نساء النبي صلى الله عليه وءاله مناسبة لتنبيه المؤمنين لعدم الغفلة عن موعظة أنفسهم وموعظة أهليهم وأن لا يصدهم استبقاء الود بينهم عن إسداء النصح لهم وإن كان في ذلك بعض الأذي.

وهذا نداء ثان موجه إلى المؤمنين بعد استيفاء المقصود من النداء الأول نداء النّبي صلى الله عليه وءاله بقوله تعالى "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك".

وجه الخطاب إلى المؤمنين ليأتنسوا بالنبي صلى الله عليه وءاله في موعظة أهليهم.

وعبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار على سبيل المجاز لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضى إلى عذاب النار أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة.[٣]

٦- يقول سيد قطب فى ذبل الابة:

هذا أمر ينبغى أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدًا، إن أول الجهد ينبغى أن يوجه ويجب الإهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم

[١] : السيد مُحَمَّد حسين الطباطبائى، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط:٢، ١٩٨٤، ص:٣٣٤

[٢] : مُحَمَّد جواد مغنية، التفسير الكاشف، المجلد السابع، دار الأنوار، بيروت – لبنان، ط:٤، ص:٣٦٦

[٣] : الشيخ مُحَمَّد طاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المجلد الحادي عشر، دار سحنون للنشر والتوزيع، ص:٣٦٥

وينبغـــي لمن يـريد بناء بيـت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة وإلا فسيتأمر طـــويلاً بناء الجماعـــة الإســـلامية، وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات.[1]

وبهذا يتجلى لنا من خلال ما أورده المفسرون النقاط التالية:

إن الزواج ليس عشق ذكـر لمفاتن أنثى- إنـه إقامة بيت السكينة النفسية والاداب الاجتماعية، في إطار محكم من الإيمان بالله والعيش وفق هداياته والعمل على إعـلاء كلمة وابـــــلاغ رســـــالته.

بمعنى أن الغابة ليست ايجاد أجيال تحسن الأكـل والشرب والمتاع، إنما الغابة إيجاد أجيال تحقق رسالة الوجود، ويتفاوت الأبوان فيها على تربية ذرية سليمة الفكر والقلب شريعة السلكوك والغابة.

وعلى الرجل حينما يفكر في الزواج أن يعرف هذه الحقيقة، ومن المحبون أن يكون الزواج انحصارًا في إدراك الشهوات، وطلب المتاع.

وأول اللبنات في هذا البناء انتقاء الأمهات من بيوت متدينة معروفة بالتقوى، فإن ذلك أدنى إلى ارتقـاب ثمر ناضح طيب قال تعالى: "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله والـذي خبث لا يخرج إلا نكدًا"

المحور الثالث

وظيفة الأسرة وواجباتها نحو الحياة الأفضل

يقول تعالى "لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوْهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلٰى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلٰى هُدًى مُّسْتَقِيْمٍ"[2]

فهذه الأمة أمة ممتازة، ذات منسك فريد محيد، وعلينا أن نتمسك به ولا تعبأ بمنارعة الأمم لنا على مناسكها. وحسبنا أن الله عز وجلّ يؤكد لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله إنه فى منسكه الذى شرعه الله له منسكه معه على هدى مستقيم كما يؤكد فى آية آخرى إننا بفضل المنسك، وتحت قيادة هذا الرسول "خير أمة أخرجت للناس"

[1] : سيد قطب في ظلال القرآن، دار الشروق، المجلد السادس، ۱۹۸۰م، ص:۳٦۱۹

[2]: حج:٦٧

وعن هذا يجب عن الأباء والأمهات برعاية الأبناء من ذكور وإناث وتكفينا هذه الأية "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ..." مبحثًا نربوبا

والاحاجة بنا هنا إلى بسط القول عن الخطأ الذى تجترحه الأسر غير الإسلامية. وسرت عداوة إلى الأسر الإسلامية – وهو انصراف الأمهات طوعًا إلى ارضاع أولادهن صناعيا بغير البانهن الطبيعية أو تسليمهم إلى المحاضن العامة والمربيات الأجنبيات مما أوهن علائق الأسر وأضعف ارتباط الأبناء بأبائهم وأمهاتهم، كما اعترف بذلك علماء التربية والباحثون فى شئون النساء والأطفال على أن التشريع الإسلامي الذى احتص المرأة بتربية الأولية –لحكمة بالغة– احتص الأباء، بعد بلوغهم سن التميز، لحكمة أيضًا– فهم كرجال أقدم على الحرم في رعايتهم والعناية بمستقبلهم، وفتح عيوبهم على مطالب الحياة من علم وعمل واكتساب.

و من أجل ادامة المودة بين الأبوين المتفارقين، أو الاسلام كلاّ من الأب والأم بألاّ يضار أحدهما الأخر بسبب الولد فعلى الوالد إسداء المعروف من كسوة ونفقة والأينزع منها بغير شرعي ... وعلى الأم قبول هذا المعروف فى نطاق ما يجب لها وما يقدر الأب عليه – بقول الله عز وجل "أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ "[1] "وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ"[2]

ولو قدر أن افتقد الوليد أباه، فجاء إلى الدنيا يتيمًا فوارثه ملزم بنفاق الحصانة والرضاع.

ومما يلحق بتربية الأولاد في التشريع: الولاية والوصابة، وهما يعنيان أن يقوم أقرب الناس إلى الصغير أو السفيه أو المجنون أو المغوه بتدبير شئونه، ورعاية حقوقه إلى حين الكبر والرشد أو الشفاء... وقد رتب الاسلام لهما قواعد ومنازل لا يتسع المجال لتفصيلها، ولكنا نستطيع أن نقول أن الاسلام وبما رسم للوصاية والولاية من قوانين إنما يريد أن يظل الأقرباء –أي الأسرة الواحدة– فى تعاون وترابط مستمرين، الكبير يرحم الصغير، والعاقل ينوب عن المجنون فى آخذ واعطاء لمصلحته المشروعة، والرشيد يحمى السفيه من تصرفات لا تجديه.

---

[1]: طلاق:٦

[2]: بقره:٢٣٣

إذن فالأمهات عليهن مسؤولية تربوية، ربما كانت أعظم من مسؤولية الأباء، لأنهن أكثر عشيرة، وأطول صحبة للأطفال من آبائهم المشغولين عادة بهموم العمل والكسب.[1]

وقد اتّفقت نظريات التربية القديمة والحديثة على أن الأم تقوم بدور أساسى ورئاسى فى تربية الأطفال وتنشئتهم وإعدادهم لأطوار المراهقة فالتسبيبة فالرجوله أخيرًا. وأصبح قول حافظ إبراهيم –الشاعر المصرى– من قصيدته المشهورة عن دور المرأة التربوي والاجتماعي:

الأم مدرسة إذا أعددتَها أعددْتَ شعباً طيب الأعراق
من لي بتربية النّساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق
فالنّاس هذا حظه مال وذا علمٌ وذاك مكارم الأخلاق
فالمال إن لم تـدّخره محصّناً بالعلم كان نهاية الإملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبنّ العلم ينفع وحدَه ما لم يُتوّج ربُّه بخلاق

ومن أهداف تكوين الأسرة في الإسلام

١- إقامة حدود الله:

أي: تحقق شرع الله في كل شؤونها، وفي العلاقة الزوجية، وهذا معناه إقامة البيت المسلم الذى يبنى حياته على تحقيق عبادة الله، وهذا يحقق الهداف الأسمي للتربية الإسلامية.

٢- تحقيق الأثرى التربوي:

ينشأ الطفل ويترعرع فى بيتٍ أقيم على تقوى من الله ورغبة في إقامة حدود الله وتحكيم شريعته، فيتعلم بل يقتدى بذلك من غير كبر جهد أو عناء، إذ يحتص عادات أبوبه بالتقاليد. ويقتنع بعقبدتها الإسلامية حتى يصبح واعيًا.

٣- صون فطرة الطفل عن الزلل والإنحراف:

قال رسول الله صلى الله عليه وءاله (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْيُمَجِّسَانِهِ...) اعتير الإسلام الأسرة مسؤولة عن فطرة الطفل

[1] : محمّد الغزالى، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، ط:٣، ١٩٩١م، ص:٥٥

واعتبر أم كـــل انحرافٍ يصيبها مصـدره الأول الأبـوان أو من يقوم مقامهما من المربيـــن.

أثر العقيدة فى نجاح التربية

مما يلاحظه المشغلون بـدراسة أحوال المجتمعات الإنـــسانية، المتأملون لتطوراتها ومناهج سلوكها: إن الطرائق الحـــديثة فى التربية الفردية والتوجـــه الجماعى– لا تملك لنفسها التأثير اللازم، والإقـناع الحاسم بحيث تنتصر على عرامة الشهوات الإنـــسانية، وطفيان الأنـانية والـذاتية التى تـؤثر مصلحتها وحـدها على مصالح الأخرين.

فهى – أي الطرائق التربوية العصرية– لذلك قليلة النجاح بـل عديمة زنادرة العـلاج بـل فاقـدة له فـكم قـرآنًا، وكم سمعنا عن مصار (التدخين) الصحية التى أثبتتها تقارير الجمعيات الطبية فى كـل من بريـطانيا وأمريكـا، وهى ذات اختصاص علمى، وصاحبه خبرة تجربية، ولكـنا لم نجـد أي أثر للاستماع إليها ولإقناع بها. وما يزال الناس يدخـــنون ويسرفون فى التدخين، وفى طليعتهم الإطباء والمثقفون.(١٧)

بـل أعجب من ذلك وأغـرب أن ينجح أصحاب المصانع التى تنتج السجائر بأن انتاجهم قـد تضاعف– والأرباح قد تزايدت– بعـد حمـلات الأطباء الشديدة على التدخين، وبعد امتناع الأذاعـة والتلفزون عن الدعابـات الإعـــلانية التجارية المتمدحة بلذائذ التدخـين.

وقـد سبق لأمريكـا نفسها أن أعلنت تحريم، وأصدرت بهذا التحريم قانونًا – ولكن الناس لم يسمعوا – لهـذا القانـــون ولم يطيعوه، بـل ازداد شرها فى شرب الخمر يكرنون من كؤوسها فى تهم لا يفقه مضره إلفاء القانـون، واعـــلان الإباحـة، مـــرة أخرى.

وكذلك الحـال بالنسبة لعقوبة الإعـــدام قصـاصًا، كم نسمع أن بعض دول أروبـا وأمريكـا– أقرتها نظرًا لتزايـد حـــوادث الإعـتداء على الارواح، ثم عدلت عنها.

وهنا–وبالتأمل والمقاربة بين طرائق التربية والتوجيه الحديثة وبين مناهج الإسلام التربوية–يبدو أثرة العقيدة قويا فيما يشرعه من أخـــلاق وآداب، وفيما يمنع ويـــــبح.

ذلك ان الانـــسان بصببعته البشرية، يكره التفييد والتكليف، ويجب الانـطلاق والابقـلات من كل القيود والتكاليف وهو يتساءل فى قرارة نفسه لماذا أخضع لهذا القيد أو لذلك التكليف؟ ومن هو الذي يكلفنى أو يقيدنى وهل هو عادل، يرود بى الخير أم

هو يظلمنى بما يفرض علىّ من فرائض والمسلم وحده هو الذى يجد الأجوبة الشافية عن هذه التساؤلات... فالله وحده هو الذى شرع له هذا الدين القيم، وبين له الحلال والحرام، علل له التحليل والتحريم بما يرتاح له وجدانه ولا يرفضه عقله، كما ميّز له سبحانه وتعالى "الخبيث من الطيب" وحذره من أن ينخدع بكثرة الخبيث، ولذة المعصية فكلتاهما –اللذة والكثرة– إذا كانتا فى حرام فهما هباء وغثاء وعناء.

ومن ثم تنشأ العقيدة فى قلب المسلم فيؤمن بالله خالقا ورازقا، آمرًا وناهيًا بحكمة وعدالة.

والدكتور مُحَمَّد فاضل المجالى يجعل الإيمان –أي العقيدة– أول محتويات التربية الإسلامية ويرتب هذه المحتويات وبين أثر كل منها عن النحو التالى:

١– الإيمان: هو الينبوع الذى نسقى منه الأخلاق الفاضلة

والأخلاق: تقود الانسان إلى معرفة الحق والحقيقة، وهذا هو العلم بعينه.

والعلم: يقود الإنسان إلى العمل الصالح

فالإيمان هو أساس الأخلاق الفاضلة..... والأخلاق الفاضلة هى أساس العلم الصحيح، والعلم الصحيح هو أساس العمل الصالح هذا هو البناء التربوي القرآنى الرفيع المنيع.

ويتساءل الدكتور المجالى: كيف يستطيع المعلم تكوين ناشئة مؤمنة بحيث: أن التحفيظ اللفظى لا يكفى فى التربية الدينية فالمهم هو التصديق والتصديق قناعة فكريًا وعاطفية معًا، وهو يتصلب إتّصالاً روحيًا بين العلم وطلابه.

ولمّا كان فاقد الشئ لا يعطيه– فلا بد أن يكون المعلم مؤمنا صالحًا حتى يستطيع أن يوحى الإيمان إلى نفوس الطلاب.

الخاتمة

توصلت الورقة إلى أن السياق القرآنى للأية الكريمة تمثل أهمية كبيرة لتربية الأسرة، وعبارة الأية دور في رفد المعنى التى تلح على ايصاله إلى المؤمنين تمثل ذلك فى نداءةً للمؤمنين خاصة وفي أمرهم بالوقاية بصيغة "قُوْٓا" وفى تنكيره للفظ "نَارًا" كما توصلت الورقة إلى اتفق جميع المفسرين على مسؤولية الآباء والأمهات في التربية.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- مُحَمَّد قطب، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق(د.ت)

٣- نفس المرجع

٤- الرّاغب الإصفهاني، مفرادات الرّاغب الإصفهاني، دار المعروف للطباعة والنشر (د.ت)

٥- نبل خللو٢٠١٣م الأسرة وعوامل نجاحها،(طدا) الجزائر جامعة قاصدى مرباح ورقلة

٦- نبل خللو؛ الأسرة وعوامل نجاحها ، المرجع نفسه

٧- أحمد مُحَمَّد جمال، نحو تربية إسلامية، منسورات تهامة ط:١، سنة ١٩٨٠

٨- جبار أهليل زغير مُحَمَّد الزيدى المياحي، أسلوبية اللغة عند نازك الملائكة، أطروحة تقدم بها إلى مجلس كلية التربية جامعة بابل لنيل شهادة دكتورة في اللغة العربية ٢٠١١م

٩- ابن مُحَمَّد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن (الطبري)، الملسية التوفقية (د.ت)

١٠- الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير المتقى، تفسير القرآن العظيم، المكتبة التوقيقة د.ت الجزء: الثامن

١١- السيد مُحَمَّد حسين الطباطبائى، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت- لبنان(د.ت)

١٢- مُحَمَّد جواد مغنية، التفسير الكاشف، المجلد السابع، دار الأنوار، بيروت – لبنان(د.ت)

١٣- الشيخ مُحَمَّد طاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتّنوير، المجلد الحادي عشر، دار سحنون للنشر والتوزيع

١٤- سيد قطب في ظلال القرآن، دار الشروق، المجلد السادس، ١٩٨٠م

١٥- مُحَمَّد الغزالى، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، دار الشروق، ط:٣، ١٩٩١م